عظماء قهروا اليأس :

سعد زغلول

يوسف الحمادى



سعد زغلول

بقلم

يوسف الحمادى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

(١)

مولد سعد

أصبحت بلدةُ « إبيانَة » ، لتستقبلَ يومها الجديدَ كما أَلِفت ، وادعةً كلَّ الوداعة ، نشيطةً غايةَ النشاط ، من أهلِها من بكَّر إلى أرضِه التى يزرعُها لنفسه أو لغيره ، فقضى سحابةَ يومِه[1] بها ، يتعَهَّد زرعَها أو يَرعى ثمارَها . ومن قصدَ إلى مياهِ النيل من حولِه أو إلى بحيرةِ البرلس على مقربةٍ منه ؛ ليصيدَ سمكَها بأنواعِهِ المختلفةِ فى أشكالِها وطعومِها وقيمتها . ومن بادر لاستقبال السائحين ، من الأجانِب والمصريينَ الذين يصطافون بساحل البلدة ، ليقدمَ لهم من الخدماتِ السياحية ما يحتاجون إليه ، ويتقاضى على ذلك أجرَه أو يعتمدَ عليه فى رزقه . كما أن منهم من يشتغل بغير ذلك من الحرف الأولية المعروفة بالبلدة .

وقد ساعد موقع « إبيانة » على هذه الحركةِ الحية ، ويسَّر لها أسبابَها ووسائلَها ؛ فهى إحدى بُلدانِ مركز « فُوَّة » ؛ بما فيه من حماسةٍ للعملِ ومنافسةٍ فى طلب الرزق ، وشماليَّها البحرُ المتوسِّطُ بحركتِه القويةِ النشيطةِ ، وبحيرةُ البرلُّس بمصايدِها السمكيةِ الشهيرةِ ، وعلى حَافَتِها فرعُ رشيد أحد فرعَى النيلِ اللذينِ يمدان دلتا مِصرَ بالخصب والخير والنماء .. وبالقربِ منها مطوبس ودسوق وكفر الشيخ ، وكلُّها من البلدانِ أو البلادِ التى كانت معروفة فى إقليم الغربية إذ ذاك .

---

(١) سحابة يومه : أكثره .

أصبحت « إبيانةُ » كذلك فى يومها الجديد الذى استقبلته ، وكان هذا اليومُ فى مطلعِ الصيفِ ، قُبيلَ سنة ١٨٦٠ بعامين أو ثلاثة . وفيه بكر الشيخُ إبراهيم زغلول ، فارتدى جلبَابَه الأبيض ، وشدَّ على وسطِه مِنطقتَه[١] التى امتلأت جيوبُها بظروفِ الرَّصاص ، ولبس طربوشَه المغربىَّ بزِرِّه الكثِّ الطويلِ ، وعلق بندقيتَه فى كَتِفه ، وخرجَ ليجدَ فرساً مُعَدًّا لركوبه .

ركب الشيخُ فرسَه ، وحفَّ به[٢] بعضُ عبيده عن يمينه وعن شمالِه ، وأسرع إلى أرضِه التى طرح لها فرعُ « رشيد » غيرَ قليلٍ من غَرينِه[٣] البكر ، فتفقَّدها بسرعة ، وصرَّف أمورَها فى عَجلةٍ ، وكان فَرِحاً سعيدًا بما وجد فيها من دلائِل الخِصب ، ومظاهِر النضْرةِ والنماء ، فرفع يديه إلى السماءِ فى ضراعةٍ[٤] وخشوعٍ ، يقول وقد انتحى جانباً :

« يا رب ! لقد وسَّعتَ لى فى الرزق ، وأسبغتَ لى النعمة ؛ فحمدا لك !

يا رب ! إن مريمَ زوجتِى بين يديك تضعُ حَمْلَهَا ، فارزقنى منها ابناً صالحا ولا تُخيِّبْ رجاءَها ورجائى » .

وقفل راجعاً إلى الدارِ بعبيده ، وجلس فى المنظرةِ ، وهو قَلِقٌ مضطرب ، تنقبضُ أساريرُ وجهِه مرَّةً ، وتنبسِط أخرى ، ولم يستطع أن يهدأ أو يتصبَّر ، بل دعا إليه إحدى جواريه ، وسألها عن حالةِ سيدتها . قالت :

— إن فرجَ الله قريبٌ يا سيدى !

وعادت إليها مسرعةً ، ثم أقبل عليه بعضُ زوَّارِه ، فجعلوا يُسلُّونه ، ويعملون على إخراجِه من قلقِه . قال له أحدهم :

— لن يُخيِّبَ الله رجاءَك ؛ فإنك لا تخيبُ رجاءَ أحد .

---

(١) منطقته : حزامه . (٢) حف به : أحاط به .

(٣) غرينه : « طميه » . (٤) ضراعة : خضوع وتذلل .

وقال ثان فى لهجةٍ هازلة :

ــ ما هذا القلق ؟! حقًّا إن الله سبحانه أُكثرَ من بناتك فى أُمسك . ومن يدرى ؟ قد يرعاك فى يومِك وغدِك ، فيرزقُك الذكورَ ، ويكثِرُ لك منهم . ستشبعُ منهم إن شاء الله !.

وقال ثالث :

ــ لقد رأيتُ رؤيا عجيبة !! رأيتُ رجلا كأنه من نور ، يزرعُ لك شجرةً ، تلقى ظلَّها على ناسٍ كثيرين ، لا أول لهم ، ولا آخِر .

كان الشيخ يُصغِى صامتًا إلى كلماتِ أصحابه ، ولكنه فتح عينيه على هذه الكلماتِ الأخيرة ، وقال لصاحبها : بشَّرك الله بالخير ! لك عندى أجزلُ عطيَّة !

وعاد إلى تفكيرِه ، فحدثته نفسُه أن يترك زوارَه ، ويدخل الدار ؛ ليطمئنَّ على زوجتِه مريم فى أولِ وضعٍ لها ، وهمَّ أن يفعل ، ولكن الجاريةَ أقبلت عليه بوجهٍ مشرقٍ متهلِّل(١) .. فبادر ليلقاها .

وقال : كيف الحال ؟

قالت : أبشر يا سيدى !

قال : قولى ! عجِّلى !

قالت : رزقك الله الابنَ الذى ترجوه !

قال : وسيدتك ؟!

قالت : فى أحسنِ حال !

قال : حمداً لله على منَّتِه ! حمداً لله على منتِه !

تقدم أحد زوارِه منه ، وقال : لعلك استرحْتَ !

---

(١) متهلل : متألق متلألئ

قال الثانى : إنه بشيرُ سعد !

قال الثالث : سعدٌ ، وأىُّ سعد !

قال الأب : وجدت الاسمَ الذى كنتُ أبحثُ عنه .

سأسميه « سعدَ الدين » ؛ لعل الدين يسعد به ، والدنيا تهنأُ بحياتِه .

وكان سعدُ الدين هذا هو سعد إبراهيم زغلول ، أو سعد زغلول الذى صارَ على قمةِ زعماءِ الوطنية المصريةِ فى العصرِ الحديث .



صورة للشيخ إبراهيم زغلول فى زيه البدوى

(٢)

أسرة سعد وأثرها فى تكوينه

كان الشيخ إبراهيم زغلول قد جاوز الأربعين بسنوات ، وأكثرُ أولادِه من الإناث ؛ ولهذا حَرَص على أن يجمعَ حولَه عدداً من العبيد ، يحمونه ، وينصرُّونه ويحوطونه بمظاهِر الأبهةِ[1] والمهابة .. ولكنه كان يُحسُّ فى أعماقه أن هؤلاء العبيدَ غرباءُ عنه ، وأن عِزَّته الحقيقية لن تكونَ فيهم.. ولا بِهم ، وإنما هى فى أبنائِه من صُلْبه ... ولهذا فكرّ فى الزواجِ للمرةِ الثانية ، وسوغ[2] له مثلَ هذا التفكير ، مع سنّه ، أنه فى عنفوانِ صحتِه[3] ، وأنه من ذوى الثراءِ فى « إبيانة » ، وأن لغة البيئةِ من حوله هى لغةُ القوة ، ولغةُ العصبياتِ التى يهابها الناسُ ، وينحنى أمامها الحكامُ الأتراكُ على طغيانِهم وجبروتِهم .

وكان من الطبيعىِّ أن يفكرَ الشيخُ إبراهيمُ فى الزواج من أثرى أسرِ « إبيانة » ، وأعزِّها وأمجدِها ، ولم تكن فى « إبيانةَ » أسرةٌ تتوافرُ لها هذه الصفات ، كما تتوافرُ لأسرةِ الشيخ « عبده بركات » . حقا ! فإن لهذه الأسرةِ من المال ما وضعها فى مستوى أغنى الأسرِ بإقليم الغربية ، على سعتِه وامتداد أطرافه ، ولها من العزةِ والمجدِ ما جعل الحكامَ الأتراكَ يتودَّدُون إليها ، ويوثّقون صلاتِهم بها ، وهى ذاتُ جاهٍ عريضٍ بعددِها ، وبما لبعضِ أبنائها البارزين من مناصبَ رفيعةٍ لم يكن يتولاها غيُر الأتراك العثمانيين ، وبمن ارتبطت بهم ، عن

(١) الأبهة : الفخامة والبهجة .   (٢) سوغ له : سهل له

(٣) عنفوان صحته : أولها وأشدها .

طريقِ المصاهرة ، من الأسر الكريمة ذاتِ الشرف والمكانة فى الغربية وفى غيرِها من المديريات .

وأخيرًا صمم الشيخُ إبراهيم ، وتقدم إلى الشيخ « عبده بركات » ، يطلبُ يَد ابنتِه « مريم » ، وهى تخطو نحو السابعةَ عشْرةَ من عمرِها فرحب به أبوها ، ورضِيَ به زوجاً لها ، ولم يكن أحدٌ يدرى عندئذٍ أن هذا الزواجَ سينجبُ لمصرَ كلِّها زعيمَها الشعبيَّ المحبوبَ سعدَ زغلول .

استقبلت الدنيا الطفلَ بابتسامَةٍ عريضة ؛ فقد وُلِدَ ونما فى ظل أبوين يحبانه غايةَ الحب ، ويُظلِّلانِه بأقصى ما يستطيعانِ من رعايةٍ ، ولعله حين وعى ما حولَه رأى فى أبيه صورتين واضحتين : صورةَ فارسٍ جَسُورٍ مهيب ، رافِع الرأس ، معتزٌّ بقوتِه وسلاحِه وعبيدِه ، يدورُ بعينيه وكأنه يتحدَّى أىَّ فارسٍ أن يغالبَه أو يجرُؤَ عليه .. ورأى فيه أيضا صورة زعيمٍ ، يحبُّه أهلُ « إبيانة » ، ويلتفُّون به ؛ لأنه يحنو عليهم حنوَّ الأبِ على أبنائه .. يرعى العاجزَ منهم ، ويُعطِى المحتاجَ ، ويؤدِى الدين عن المدين ، ويتعرضُ لمن تحدثُه نفسُه بالعدوانِ عليهم ، فيصدُّه ويردَعُه أشدَّ الردع . ورأى الطفل الصغيرُ فى أمِّه صورا متعددة : رأى فيها صورة شابةٍ فتيةٍ ؛ وصورةَ شيخةٍ حكيمة ، لها رزانة ودهاء ، تدخل عليها نساءُ الأسرة ثائراتٍ مختلفاتٍ فيما بينهن ، ويخرجن مقتنعاتٍ راضياتٍ بحكمها وما تنصح به ، وصورةَ امرأة ذكيةٍ لَبِقَةٍ[1] ذات إرادةٍ صُلبة لا تهتزُّ ولا تضطرب . كما رأى صوراً أخرى متعددةً ، من حياة إخوتِه وأخواته ، ومن حياةِ جده « عبده بركات » وأخوالِه وخالاتِه . وليس من شكٍّ أنه لم يستوعبْ هذه الصورَ فى طفولتِه الباكرِة ، ولكنه وعاها شيئاً

---

(١) لبقة : حازمة فى دقة .

فشيئاً مع حركة نموِّه ، وكان لها أعظمُ الأثرِ فى نفسه ، وسلوكِه ، ومسيرِ حياته . هكذا استقبل سعد الحياة .

كان مولِدُه لأبٍ من أخصِّ صفاته الجرأةُ ، والحميةُ ، والميلُ إلى التحدِّى والصبرُ على مشاقِّه وآلامِه ، فورِث عنه هذه الصفاتِ ، وظهرت فى صراعِه السياسىِّ بصورةٍ أقوى وأرسخ . نبت فى رحاب أسرةٍ لم تعرف مرارة الفقر ولا مذلَّة الحاجة ، فجاءت نفسه سَوِيَّة[1] بعيدةً عن الضعف والالتواءِ والتعقيد . أحس منُذ صِغرِه بزعامةِ أبيه لأهل « إبيانة » وأبوتِه لها ، فكانت زعامتُه لمصر زعامةَ ريادةٍ وأبوةٍ فى وقت واحد . عايش أمَّه أكثر مما عايش أباه ، فورث عنها الذكاءَ الهادئ ، والدهَاء الذى لا يُخدَع ، والإرادَةَ القويَةَ التى لا تنثنى ولا تتراجَع . سُئل سعدٌ عن أثر أبويه فيه ، فقال :

ــ « إن خلُق والدِى هو الذى يتجلَّى فىَّ حينَ أقدمُ وأثور ، أما المرحومةُ والدتى فقد عُرِفَتْ بين أهِلها بالحكمةِ والدهاءِ والقدرة على ضبط النفس ، فكانوا يحتكمون إليها فيما بينهم من خلافٍ ، ويرجِعون إليها فى القضايا والمشاكل» .

هذه هى الصفاتُ التى ورِثَها سعدٌ ، أو نقلَها عن أسرتِه ، وكلُّها ذاتُ صلةٍ قويةٍ بشخصيتِه وزعامتِه لوطنه فى مستقبلِ حياته .. وقد انضم إليها أنهُ ولِدَ فى أعماقِ الريف ، وعاش مطلَّعَ حياتِه فوق أرضِه ، ينعمُ بشمسِه وأنسامِه ، ويلهو مع أطفالِه ، ويتنقلُ بين مناظِره .. ولعله ملأ عينيه وقلبَه منه ، وهو فى يدِ أبيه بين مزارِع الأسرةِ بأرضِ الجزائر على الساحل ، أو فى يد أحدِ أخواله بين بساتينِ بركات ، حيث الجداولُ ، والنخيلُ ، والأعنابُ ،

---

(١) سوية : مكتملة .



صورة لخال سعد يمسك بيده ويتمشى بين البساتين بنخيلها فواكهها وثمارها

وألوانُ الثمار والفاكهة ، فترك ذلك كلُّه أثرَهُ فى طبيعتِه وحياته . كان فلاحاً فى تكوينِه الجسمى ؛ بقامتِه المديدةِ الفارعة(١) ، ولونهِ القمحيِّ الذى يجمعُ بين السمرةِ والصفرةِ ، وجسمِه المعروقِ(٢) النحيل ، وعينيه الضيقتين ، وفمه الواسع ، وأنفه العريضِ فى أسفله . وكان فلاحاً فى مشاعرِه ، يحبُّ الفلاحين ، ويتعصبُ لهم ، ولا يدَّخرُ وسعا فى الدفاع عنهم ؛ لأنه رأى فيهم أوضحَ صورةٍ للضحايا المطحونةِ المسخرةِ للحكومة والأغنياء ، تعطيهم وتعملُ لهم ، ثم تتقاضى أجرَها على ذلك ضربًا بالسياط ، وزجًّا فى السجون ، ومعاملةً كمعاملة الكلابِ الضالةِ الشاردة . وكان فلاحاً فى خلقِه الريفى الذى يتسمُ(٣) بالصراحةِ والصرامةِ(٤) ، والبعدِ عن الرياءِ والمجاملة الكاذبة والذوق الزائف الخداع . كما كان فلاحاً فى زعامته ، يسرُّه أن يوصفَ بأنه الزعيمُ الفلاح أو الفلاحُ الزعيم ، ويسوءه أن ينتميَ إلى عصابةِ القادةِ من التركِ ، والأكرادِ ، والأجانبِ ذوى الوجوه الشقراء والشواربِ الصفر ، ممن شَقِيت مصرُ بهم ، وقاست أشد المآسى على أيديهم .

---

(١) الفارعة : الطويلة .   (٢) المعروق : البارز العظام النحيل .

(٣) يتسم : يتميز .   (٤) الصرامة : الحدة

(٣)

دراسة سعد

مرت بضعُ سنواتٍ بالشيخ إبراهيم زغلول والسيدةِ مريم بركات ، وهما يعيشان فى مرحٍ وبهجةٍ وهناءة ، لم ير أحدُهما مثلَها فى أمسه ، ولم ينتظر أكثرَ منها فى غده ؛ ولكنِ الزوجةَ الشابةَ ما لبثت أن اصطدمت صدمةً عنيفة ؛ فقد مات عنها زوجُها ، وهى ما تزالُ فى غضارةِ[1] الشباب وفى نحو الثالثةِ والعشرين من عمرها .

وكانت هذه الصدمةُ كالصاعقةِ التى نزلت بالأسرةِ على غير توقع ، فأشاعت فيها جوًّا قاتماً من الفزع والأسى ... حزنت الزوجةُ أشدَّ الحزنِ لموت شريكِ حياتها ، وفارسِ أحلامها ، وأقوى سندٍ لها فى مواجهة أعتى التيارات .. ونظر الطفلُ الصغير سعد ، فوجد دنياه قد خلت فجأةً من أبيه الذى كان مشغوفا به ، حريصاً على أن يراه بجانبه ، مولعاً بأن يحقق له كلَّ ما يطلبُ ولو كان ما يطلبُه بعيدَ المنال .

واهتز الطفلُ هِزَّةً عنيفة ، وحَزِنَ لفراقِ أبيه ، ولكنه عادَ فتماسك ؛ لأنه عَرَف معنى الموت ، وأدرك أن أباه لن يرجعَ إليه ، وزاد من تماسكِه أن أمَّه كانت تكفكِف[2] دمعها ، وتتكلفُ الابتسام حين تراه ، ومرت به هذه الكارثةُ دون أن تحطمَ قلبَه ، أو تحملَ اليأسَ إلى نفسِه التى تتفتحُ للحياة ، كما

---

(١) غضارة الشباب : نعمته وسعته (٢) تكفكف : تمسح وترد .

تتفتح الزهرة الغضةُ(١) لأنسامِ الربيع .

وهدأت الأحزان ، وبدأت الأسرةُ تفكرُ فى أمرها بعد فقدانِ عائلها ، والتقت الأمُّ ، وزوجُ أختها الشناوى أفندى ، وأكبرُ إخوةِ سعد من أبيه ، وأخذ الثلاثةُ يفكرون فى أمرِ الطفلِ الصغير ، وهو على مقربةٍ منهم .

قالت الأم : إن مستقبلَ هذا الطفلِ يشغَلُنى ! إنه الآن فى السادسة ، ولم نستقرَّ على رأيٍ فى أمره !

قال أخوه : لا تشغلى بالَك يا أماه ! لن أهملَ أخى ! إنه الآن فى كفالتِى وفى كفالةِ زوج خالته الشناوى أفندى ، ونحن مسئولان عنه .

قال الشناوى أفندى : وسنقومُ إن شاء اللهُ بواجبنا نحوه .

قال الأخ : إن أمرَ هذا الطفلِ عجيب ! إذا فكر كان أكبرَ من سنِّه ، وإذا تحدثَ كان ألبق من أمثالِهِ ... وكان الطفلُ يسمعُ ويبتسمُ ابتسامةً تملأ فمَه الواسع .. واستطرد الأخ يقول : إن ملامحَ هذا الطفلِ توحى بأنه سيكونُ له شأنٌ ، وإن من الظلمِ له أن يُتركَ بغير تعليم ، أو تُدْفنَ مواهُبه فى أعمالِ الزراعة .

قالت الأم : أليست هناك مدارسُ حديثة ؟!

قال زوج أختها : ليس فى إقليم الغربية على سَعتِه غيرُ المكاتِب المعروفة ، وفيها يتعلَّم الأطفالُ القراءاةَ والكتابةَ ومبادئَ الحساب ، ويحفظون القرآن الكريم ، ولا يزيدون على ذلك كثيرا ..

قالت : وهل هذا كلُّ ما نريدُه لسعد ؟ إن أكثرَ أطفالِ هذه المكاتب يرتدُّون إلى الأميةِ بعد تركِهم لها !

(١) الغضة : الطرية اللينة .

قال الأخ : اطمئنى يا أماه ! إن سعداً ليس كهؤلاء الأطفال ، ولسنا كآبائهم . سنعاونُه على متابعةِ الدراسة بعد هذه المكاتب ؛ حتى يدخلَ الأزهر ، ويتخرّج فيه عالماً دينيًّا كبيرا . إنه سيصنعُ مستقبلَه بيد الله تعالى وبيده .

قالت : على بركة الله !

ودخل الطفلُ المكتب ، وجلس بين أطفالِه ، وأخذ يتعلمُ كما يتعلمون ، فتبرمَ[1] بما فيه من قسوةٍ وجفوة ، وود لو تركه ، ولكن حزمَ أمه وأخيه صرفَه عما راوده ، ودفعه إلى الاندماج فى حياتِه الجديدة ، وكان بين أترابه الطفلَ الفذَّ[2] فى قدراته على : الفهم وحسن القراءةِ والبراعةِ فى الاستيعاب ، فحفِظَ القرآن الكَريم حفظاً جيدا ، ووعى كلَّ ما يعلِّمُه المكتب فى نحو خمسِ سنوات ، ونظر فلم يجد به جديداً يشغلهُ .. وكان لا بدَّ له من مزيد على ما درس ، ولكن أين المزيد ؟!

لقد جذب انتباهَ من حوله بذكائه ومواهبِه ، وصحَّ وضعُه بأنه الطفل المعجزةُ فى دراستِه ، فكان على أسرتِه أن تُعينَه على متابعتِها ، وكان لها من الثراء ما يتيحُ له ذلك .. ونظر الطفلُ الذى دخل فى السنة الثانيةَ عشرةَ من عمره ، فوجد نفسَه فى شبهِ رحلةٍ لا تستقر ؛ فهو حيناً فى « إبيانة » ، وتارةً فى « دسوق » ، وآونة فى « رشيد » أو « مطوبس » ، يتنقل بين علماء إقليمِه ممن تخرجوا فى الأزهر ؛ ليدرسَ على أيديهم ما يؤهله لأن يلحق به ، من لغةٍ ونحوٍ وفقهٍ وتجويدٍ وغيرها .. وكانت فترةً دراسيةً شاقة ، ولكنه كان أبرعَ من أن يتعثَّر فى علومها ، وأقوى من أن يهتزَّ تحت أعبائِها ... ولم يكد يبلغ الرابعةَ

(١) تبرم : ضاق وسئم   (٢) الفذ : الفريد .

عشرةَ من عمره حتى حصَّل من العلمِ ما دَهِشت له أسرتُه وأساتذتُـه ، وما حقق به أحلامهَم من الاستعداد لدخولِ الأزهر فى سهولةٍ ويسر .

ومع مستهل العام الدراسىِّ سنـة ١٨٧٠ كان سعدٌ فى الطريـق إلى الأزهـر ، ومعه زوجُ خالتِه الشناوى أفندى ، وبلغ القاهرة ، فراعه ما رأى من فخامتِها وضخامتِها ، ورأى الأزهرَ ووفودَ الطلابِ الذين يزدحمون على أبوابِه من مشارقِ الأرض ومغاربِها .

فارتاحت له نفسه ، وأحس أنه على أبوابِ حياةٍ دراسيةٍ جديـدة .. ولم يخب ظنُّه فى الأزهر الذى لحِق به ، وانتظمَ فى سلكِ طلابه ؛ فقد آن لهذا المعهدِ الكبير أن ينهض من سباته ، وينفض غبارَ الماضى عن نفسِه ؛ ليستقبلَ عهداً أكثرَ حيويةً ، يجددُ فيه نفسَه ، ويتصل فيه بحركة الحياةِ والعلمِ والعصر من حوله ، وكان من رواد هذه النهضةِ رجلان عظيمان : السيدُ جمال الدين الأفغانى المصلحُ الدينىُّ الثائرُ الذى قِدَم إلى مصر فى تلكَ السنة ، والشيخ محمد عبده العالم الدينى المفكر والمجدد الذى صحِب الأفغانىَّ ولازمه .

وفى الأزهر قضى سعدٌ نحو تسع سنوات ، حصَّل فيها من علوم الدين ، واللغةِ ، والأدبِ ، والمنطقِ ما لم يتسَنَّ لزملائه(١) تحصيلَه ، ووعى من أعماقِها ما لم يتهيأ لهم وعيُه .. وأفاد من هذين الرائدين العظيمين غايةَ الإفادة ؛ فعلى أيديهما تفتحت له منافذُ المعرفة ، فاندفع يقرأُ ويبحثُ وينقِّبُ ، ونمت مواهبُه وقدراتُه الأدبية ، فانطلق يفكرُ ، ويكتبُ ، ويراسلُ الصحـف ، ويخطبُ فى زملائه ، وقويت ملكتُه النقديةُ ، فميزَ بها ما حوله من ركودٍ أو حيوية ، ومن حوله من أنصارِ القديم أو روادِ الجديد ، وقويت مشاعرُه

---

(١) ما لم يتسن لزملائه : ما لم يتهيأ .



صورة لسعد بعمامته يخطب فى طلاب الأزهر وهو فى سن ١٤ سنة

الوطنية ، فتحرك بها لسانهُ وقلمُه ، يتحدثُ ويخطبُ. ويكتبُ ، فى حرارةٍ وحسٍّ وطنيٍّ صادق .. قال فى فضله على الوطن وعليه بعد زيارةٍ منه له :

جئت .. أقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل كبير فى النهضة الحاضرة . تلقيت فيه مبادئ الاستقلال ؛ لأن طريقته فى التعليم تربى ملكة الاستقلال فى النفوس ؛ فالتلميذ يختار شيخه ، والأستاذ يتأهل للتدريس[1] بشهادة من التلاميذ .

(١) يتأهل للتدريس : يصبح أهلا له .

(٤)

سعد فى حياته العملية

تعلّق سعدٌ أشدَّ التعلق برائدية : السيدِ جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، وعلّق به هذان الرائدان أملًا كبيرا . قال عنه الأفغانىُّ وقد وقعت عليه عينـه بينَ تلاميذه :

« هذا بغيتى ! »

وقال وقد قرأ موضوعاً قدمه « سعدٌ » إليه :

« مما يدل على أن الحرية ناشئةٌ فى مصرَ أن يجيدَ الكتابةَ عنها هذا الناشئ »

أما الشيخُ محمد عبده فكان تعبيرُه عن تقديرِه لسعدٍ تعبيراً عملياً ؛ فقد اختارته الحكومـة ليتولى الإشرافَ على القسمِ الأدبىِّ فى صحيفتِها الرسميـة « الوقائع » ، فتلفتَ حولَه ، يبحثُ عمن يعاونُه فى عملِه الجديد ، فلم يجدْ خيراً من الطالِبِ الأزهرىِّ النابغ « سعد » فاختاره له ، وكان ذلك فى الخامسِ من أكتوبر سنة ١٨٨٠ .

وكان اشتراكُ سعدٍ فى القسمِ الأدبِّى بصحيفةِ الوقائِع انتقالةً جديـدةً وكبيرةً فى حياتِه .. نقلته من دنياه الضيقةِ فى الأزهر إلى دنيا وطنِه ؛ بما لها من امتدادٍ ورحابةٍ[١] ، وبدلته بحياتِه الدراسيةِ المحدودة حياةً ثقافيةً ، لا حدودَ لما تتطلبُ من قراءةٍ واطلاعٍ وبحث فى : السياسةِ ، والاجتماعِ ، والاقتصادِ ،

(١) رحابة : سعة .

والقانونِ ، والأخلاقِ ، والشريعةِ ، وغيرِها .. بل إنها غيرَتْ من مظهرِه . فنزعَ عن رأسِه العِمامةَ ، ولبِسَ الطربوشَ ، وصار سعدَ زغلولٍ أفندى ، بدلًا من الشيخِ سعدِ زغلول . وتحددت بذلك شخصيتهُ ، فصارت شخصيةَ الناشئ النابغِ ، السياسىِّ فى تفكيره ، المنطقىِّ فى منهجِه ، الأديبِ فى تعبيرِه ، المتمكِن[1] فيما يعرضُ له من مختلِفِ ألوانِ العلمِ والثقافة .

ولم تكن حياة وطنِه فى ذلك الوقت هادئةً ولا مُطْمئِنةً ؛ فقد جلس على عرشِ مصرَ الخديو توفيق ، وكان حرصُه على عرشِه أشدَّ من حرصِه على خيرِ وطنِه وشعبه ، وقد جاءت ولايته لعرشِه بعد عهدٍ مضطربٍ لأبيه ، تعلق فيه ببريقِ الحضارةِ الغربيةِ ، وأرادَ أن ينقُلَها إلى مصرَ ، أو ينقلَ مصر إليها ، فأغرق البلادَ فى الديون ، وساقَها إلى الفساد ، وغمرهَا[2] بالزيف[3] من المظاهِر والقشورِ الحضارية ، وكان مع ذلك جباراً مستبدًّا ، يقوم حكمُه على تدبير الفتنِ والدسائِس ، وترويع أبناءِ الوطن فى أرواحِهم وأموالهم .

فى ذلك العهدِ كانت نفوسُ المصريين تتحرقُ سخطاً على القصر ، وعلى الأجانبِ الذين فتح لهم إسماعيلُ البابَ للتدخلِ فى شئون مصر ، وكانت نفوسُ الضباطِ الأحرار فى الجيشِ تتقدُ غيظاً على الحكوماتِ الفاسدةِ التى خانت البلاد ، وآثرت[4] خيرَ الغرباءِ على خيرِ أبنائها .. وكانت فى الجيش ثورةٌ بقيادةِ أحمد عرابى ، نيرانُها فى الأعماقِ ، ولكنها لا تظهرُ على السطح .

فى هذا الجوِّ بلهيبِه ورمادِه وغليانِه عاش سعد ؛ لأنه يحبُّ وطنَه ، ولأن أستاذَه الإمامَ محمد عبده كان من روادِ هذه الثورة ، ولأنه فلاحٌ عزيزُ النفس ،

(١) المتمكن : القادر المستطيع — (٢) غمرها : ملأها .
(٣) الزيف : الباطل الردئ . — (٤) آثرت : فضلت .

يكره ما يعانى الفلاحون من قسوةِ الاستبداد وذلةِ الفقر . وشبت ثورةُ عرابى ، ودارت معركتُها التى روَّعت القصرَ والإنجليزَ ، فعاش الإمامُ محمد عبده فى قلبِها بفكرِه ورأيه ، وعاش سعدٌ معه بعقلِه ، وروحه ، وما يستطيعُ أن يقدمَ لها من وراءِ الستار .

وأخفقت الثورةُ ، وشرِّدَ القائمون بها ، ونُفِىَ الأستاذُ الإمام خارجَ مصر .. ولم تغفُل عيونُ الخونةِ عن سعدٍ وصحبه ، فنُقِلَ من عملِه فى « الوقائع » إلى بعضِ الوظائف ، ثم فُصِل من عملِه فصلًا نهائيًّا فى أكتوبر سنة ١٨٨٢ . فظن الخونةُ أن هذه الصدمةَ ستحنى رأسَه لهم ولسادتهم من أذنابِ القصرِ والوزارةِ والإنجليز ، ولكنه أبى أن يذلَّ أو يحنىَ رأسه .. فغاظهم موقفُه ، فسدُّوا فى وجهه أبوابَ الوظائف الأخرى لمثلِهِ ، وتوهموا أنهم بما صنعوا سيبعثون اليأسَ فى نفسِه ؛ ليحطِّمَه أو ليدفعَه إلى الركوعِ تحتَ أقدامهم ، ولكنه كان أقوى من اليأسِ ، وأعزَّ من الانحناء .

طرح سعدٌ وراءَ ظهرِه هذه الوظائفَ التى يتحكمون بها فى ضمائِر الناس ، ويصنعون منها حبالًا وحزائم يسحبونهم بها كما تُسحَبُ الأنعام .. وطرق بابَ المحاماة ، مع ما يعرِفُ من متاعبها وعذابِها واحتقارِ الناس فى ذلك الوقتِ لأهلها .. ولكنها لم تُغمِضْ عيونَ الخونةِ عنه ، بل لعلها زادتهم حَنَقاً[1] . فدبروا مؤامرةً لسَجْنِه . اتهموه فيها بأنه عضوٌ فى جمعيةٍ سريةٍ مهمتُها الانتقامُ ممن حاربوا أحمد عرابى وثورته ... وألقوا القبضَ عليه ، وزجُّوا به[2] فى السجن .. ثم قدموه إلى المحاكمة ، ولكنهم عجزوا أن يأتوا بدليلٍ على ما اتهموه به ، فبرَّأته المحكمة .. وخرجوا به من ساحتِها ليعيدوه

---

(١) حنقا : غيظا . (٢) زجوا به : دفعوه .

إلى السجن ، ويلقُوه فيه ، وأشارَ بعضهُم أن يظلَّ سجينا حتى يُنْفَى خارجَ مصر .. ثم عادوا فخجلوا من سَجْنِ رجلٍ حَكَمَ ببراءَته الأعداءُ وقضاؤُهم الإنجليزىُّ نفسه .

وأطِلقَ سراحُ « سعد » بعد أن ظل سجيناً ثلاثةَ أشهرٍ ونصفَ شهر ، وبعد أن جربَ الطردَ من الوظيفة ، والسَّجْنَ ، وتعذيبَ الخونةِ ، وتدبيرَ الدسائِسِ والمكايد .. ولكنه واجه ذلك كله وقهره بعزته واستعلائه على اليأسِ والضعف .

عاد سعدٌ إلى مكتبِه . وعَمِل فى المحاماةِ ثمانى سنين . أفادته غايةَ الإفادةِ ، وأفادها أكثرَ وأكثرَ .. أفاد مِنها فى علمِه الدقيق بالقانون ؛ فقد أكبَّ على دراستِه ، وتعمَّق أخفَى جوانبِه ، وأفاد منها فى شعبيتِه ؛ فقد ظن الذين فصلوه من الوظيفةِ أنهم قبروه . ، ولكنهم إنما دفعوه إلى الشعبِ ، فعاش بين طوائفِه ، ومنحَها وقتَه وجهدَه وعقلَه ومشاعرَه ، فأخذ بيدِ العاجز وساندَه ، وأنصف المظلومَ فردَّ عليه حقه ، ووقف فى وجه المعتدين من أكلة أموالِ الضعفاءِ فحماهم ، وجعل دفاعَه فى الحقِّ وللحق ، فقدره الناسُ ، وتدفقت عليه الأموال ، وذاع اسمُه فى أنحاءِ مصر ، حتى استحق لقب المحامى الأولِ فيها ، وحتى علت منزلتُه فى عيونِ أرفعِ الطبقاتِ ، وأشيع أن الأميرةَ « نازلى » فاضل الذى اتخذته وكيلا لها فى قضاياها تخطُبُ وده ، ليتزوجَ منها .

وأفادت مهنة المحاماةِ منه فى أنه أعلى من شأنها ، وأزاح عنها ما كان عالقًا بالأذهانِ عن وضاعتِها[1] ، ووضاعةِ من يعملون فى حقلِها ، وفى أنه علَّم المحامىَ كيف يكون إنساناً ملتزماً ، يعطى بقدرِ ما يأخذ ، ويهبُ نفسَه للدفاع عن الحقِّ ، فلا يقبلُ باطلًا ولا يدافعُ عن ضلال ، ويتحرَّى الصدقَ[2] فى قوله

---

(١) وضاعتها : حقارتها .

(٢) يتحرى الصدق : يقصد إليه .

وعملِه . فلا يكذبُ ولا ينافقُ ، وضرب سعدٌ للمحامين أعلى مثلٍ فى ذلك كلِّه بعملِه ومسلكِه .

وعادت حكومة سنة ١٨٩٢ لتنصفَه ، بعد أن قضت عليهِ حكومةُ ما بعد الثورةِ العرابية بالفصلِ ، والتشريدِ ، والسَّجْنِ والتعذيب .

اختارته تلك الحكومةُ ليكون نائبَ قاضٍ بمحكمةِ الاستئناف ، وقبلَ سعدٌ المنصِبَ ، وضحَّى فى سبيلِه بما كان يُدِرُّ(١) عليه مكتبهُ من مال واسعٍ وافر ؛ لأنه كان أولَ منصبٍ يختارُ له أحدُ المحامين ، وكانت له مكانةٌ اجتماعيةٌ بارزةً .

وكما صنع فى المحاماةِ صنع فى القضاءِ .. أفاده هيبةً فوقَ هيبتِه ، وجلالًا فوق جلالِه ؛ بمقدرتِه القضائيةِ الفَّذةِ(٢) القائمةِ على الجِدِّ والاطِلاع ، والبحثِ والحفاظِ على تقاليدِ القضاء ، فكان موضعَ تقديرٍ واحترامٍ بين زملائِه من القضاةِ الأجانب ، وأفاد منه أنه اندفع إلى أن يتوجَ دراسته الذاتيةَ فى القانون بشهادةٍ تزيدُه سعة وعمقا ، وتقنعُ عبادَ المؤهلاتِ به وبكفايتِه .

عُقِدَت جلسةٌ لبعضِ القضاة ، برياسةِ أحد الإنجليز ، حضرها سعدٌ ، ودخلَ فى الحوار ، فعرضَ رأياً ، دَهِشَ له رئيسُ الجلسة . فقال :

« إن مِثلَ هذا الرأيِ لا يصدُرُ إلا عمن درسوا العلوم التشريعية من ذوى الإجازات .

كان ذلك سنة ١٨٩٤ ، وقد بلغت سنُّه السابعةَ والثلاثين ، وقد مست كلمةُ هذا الإنجليزىِّ مشاعره ، فصمم على أن تكونَ له شهادةٌ رسميةٌ كشهادتِه ، وعكف على دراسةِ اللغةِ الفَرنسية ، ودرس بها العلومَ القانونية ، وما زالَ يدأبُ(٣) حتى ظَفِرَ بإجازة الحقوقِ من جامعةِ باريس سنة ١٨٩٧ ،

---

(١) يدر عليه : يعطيه ويمده . (٢) الفذة : الفريدة .

(٣) يدأب : يتابع الجهد .

بعد ثلاثِ سنواتٍ من المعاناةِ المُضْنِيةِ[١] . ولعل شيئاً آخرَ لم يذكره التاريخُ دفعه دائماً إلى هذه الدراسة ؛ هو أنه كان يُعِدُّ نفسَه لزعامةِ مصرَ والدفاعِ عنها ، ولم يشأ أن يحملَ راية هذه الزعامةِ إلا على أساسٍ من الدراسةِ المنظمةِ المكتملِة . وكما أتيح لسعدٍ أن يعيشَ فى الثورةِ العرابية ، ويَصْلَى نارها[٢] . أتيح له أن يعيشَ بقلبِه وعقلِه ورأيه مع جهاد الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكأن نفسَه كانت تحدثُه بأنه سيحملُ الرايةَ بعدهما بصورةٍ أقوى وأروع ؛ ولهذا كان يؤيِّد كل حركةٍ ناجحةٍ له ، ويعارض كل ما فيه جريٌ وراءَ السراب .

---

(١) المضنية : المجهدة المتعبة .   (٢) يصلى نارها : يحترق بها .

(٥)

سعد بين الوزارة والزعامة

ظل سعدٌ فى مناصبِ القضاءِ أربعةَ عشرَ عاما ، بدأت سنة ١٨٩٢ ، وانتهت سنة ١٩٠٦ .. وفى هذه الفترة إلا قليلًا من أوئِلها عايش كفاحَ الزعيمِ مصطفى كامل ، وعايش معه أحداثاً جساما مرت بمصر .. رأىَ كيف تسنَّى لهذا الزعيمِ بجهدِه المضنِى[1] الجبار أن يبعث الوطنية فى النفوسِ ، ويعيد إليها الحياةَ بعد ركودِها فى أعقابِ الثورةِ العرابية ، وكيف ألهبَ نارَ الغضب على الإنجليزِ الذين احتلُّوا البلادَ ، وغدرُوا بما وعدوا به من الجلاءِ عنها ، وكيف كشف عن سياسِتهم التى قامت على الزيفِ والخداعِ والنفاق .

عايش سعدٌ الأحداث التى جرت على أرض مصرَ فى هذه الفترةِ ..عايش لورد « كرومر » ممثلَ الاحتلالِ الإنجليزىِّ ، والحكمُ فى مصرَ يكادُ يكونُ فى قبضتِه الحديدية ، وعايش إنجلترا وهى تعملُ على فصلِ جنوبىِّ وادى النيل عن شماليِّه ، وفرنسا وهى تعطى الإنجليزَ عهداً على أن تترك لهم مصر ، ويتركوا لها الشمالَ الإفِريقى .. كما عايش أحداثَ « دنشواى » ، وقد بدأت فى الثالثَ عشرَ من يونيه سنة ١٩٠٦ بحادثةٍ ماجنةٍ طائشة ، ارتكبها خمسةٌ من ضباط الإنجليز ، عنَّ لهم[2] أن يصيدوا الحمامَ فى أجرانِ القرية ، فصاد أحدُهم صاحبةَ جرنٍ منها ، وأشعلَ النارَ به ... وعندئذ ثار بهم أهلُ القريةِ ، فقابلَهم هؤلاء برصاصِ البنادق ، وأصابوا شيخ خفرائها . فسقط مضرجا فى دمه ..

---

(١) المضنى : المتعب المجهد .　　(٢) عن لهم : بدا لهم

إذ ذاك اندفع الأهالى ، واشتبكوا معهم بالعصىِّ ، ففر أحدُ هؤلاء الضباط فظل يجرى مرعوبًا حتى سقط ميتًا من ضربة الشمس ... ولم ينل المعتدين شىء ، وإنما كان العقابُ الغاشمُ لأبناءِ دنشواى ، فأعدم بعضٌ وسجن بعضٌ وجُلِدَ آخرون .

مرت هذه الأحداث كلُّها بسعدٍ ، وهى تعتصرُ قلبّه ، وتعتصرهُ ألوانُ العذاب التى تواجهها الحركةُ الوطنيةُ بقيادة مصطفى كامل ، متمثلةً فى ذبذبةِ القصر ، وغدرِ الخونة ، وطغيانِ الاستعمار الإنجليزى .. وكان يرى أن مصرَ يجب أن تتحررَ من سلطان إنجلترا والأتراك جميعا ، ولا يرضى سيادةَ الخلافة العثمانية التى رَضِيها ونادى بها مصطفى كامل ، واعتقد أنها تساعدُ على نجاحه فى دعوتِه.خلالَ هذه الأحداثِ اختارَ سعدٌ شريكةَ حياته : السيدة صفية بنتِ مصطفى باشا فهمى ، رئيسِ الوزراءِ فى ذلك الوقت ، وتم زواجُه منها سنة ١٨٩٦ ، وكان اختيارُه لها اختيارًا موفَّقًا ؛ فقد ثبتت إلى جانبه فى كلِّ موقف، وحملت عنه ما استطاعت من أعباء ، وخِلالَها قضى سعدٌ حياتَه الوظيفيةَ ، وهو فى غيظٍ عميقٍ مما أصابه ، ومما أصاب مصرَ على أيدى أعدائِها ، وفى ثقةٍ لا حدودَ لها من عظمةِ شعبِها ، وقدرتِه على إزاحةِ النكباتِ التى لَحِقَت به ، ولكنه من ناحيةٍ أخرى كان أرسخَ من أن يضربَ ضرباتِه فى الهواء، أو فى غيرِ مقتل ، فيرتدَّ عليه عدوُّه لينكِّلَ به(١).

ومع مخالفتِه لمصطفى كامل فى الرأيِ والمبدأ كان يقدرُ له ولرفيقه محمد فريد جهادهما: فقد نجح هذا الجهادُ فى إفزاعِ إنجلترا، وفى تنبيهها إلى أن ماردَ المصريَّ أخذ يُزيحُ الغطاءَ عن قمقمه ليخرجَ منه، ودفعَها أن تتوقعَ انطلاقَه فى

(١) ينكل به : يعذبه .

أى وقتٍ ، وملأها شكًّا فيما كانت تحلُمُ به من ضمِّ مصرَ إليها ، أو البقاءِ الدائمِ على أرضِها ، كما دفعَها أن تترضَّى الوطنيين وتنظرَ إليهم نظرة أكثرَ احترامًا وتقديرا. وكان من وسائلها إلى هذه الترضيةِ اختيارُ سعدٍ للوزارة سنة ١٩٠٦ .

وتولى سعدٌ هذا المنصِبَ ، وفى نفسِه آمالٌ كبار .. من هذه الآمالِ أن يسموَ برسالةِ وزارةِ المعارف ، كما سما برسالة المحاماةِ والقضاء ، وأن يوسعَ دائرةَ التعليم لتصل إلى غيرِ القادرين ، وأن يوجهَه إلى إعدادِ أبناء مصرَ إعدادًا وطنيا بدلًا من إعدادِهم ليكونوا قوالبَ جامدةً أو لُعبًا تحركها أصابعُ الاستعمارِ ، وأن يجعلَه باللغةِ العربيةِ لا باللغةِ الإنجليزية التى فرضَها الدخلاءُ عليهِ ، وأن يمدَّه إلى الكبارِ الذين فاتتهم فرصُ التعلم فى الصغر فينشرَ مِظلَّتَه عليهم ، وأن يعيدَ البعثاتِ إلى الخارج ، وأن يساعدَ على إنشاءِ جامعةٍ تَلُمُّ شتاتَ التعليم العالى ، وتعينُ على التخصصِ فى ألوان المعرفة ، وأن يكُفَّ[1] يدَ المستشارِ الإنجليزىِّ عن السيطرة عليه أو العبثِ به ، وأن يفتح الأبوابَ للمصريين ليتولَّوْا مناصبَه وشئونه ... وحققَ سعدٌ ما أراد ، أو أكثرَ ما أراد ، فتحولَ التعليم على يدِه إلى حدٍّ بعيد علِمًا قوميًّا فى روحِه وأساليبه . فيه المعرفةُ الصحيحة ، وفيه الإيمانُ بالوطنِ ، والاستعدادُ للتضحيةِ فى سبيلِهِ ، وفيه النهوضُ بالشعب على أساسِ تعليمه ، وهذا الأساسُ من أمتنِ الأسسِ فى نهضتِه ولم تقف وطنيةُ سعدٍ فى حدودِ هذا الإطارِ ، مع جلالِهِ وبعد آثارِه ، بل ساعدَ الصحافة الوطنيةِ ، وأيد قاسمَ أمين فى تحرير المرأةِ ، وكان الصوتَ الوطنىَّ الهادئ داخلَ الوزارةِ كما كان مصطفى كامل الصوتَ الثائرَ فى مصرَ وخارجَ مصر ، ولم يمنعه ذلك من أن يخالفَ هذا الزعيمَ فى وجهتِه السياسية ،

(١) يكف : يرد ويمنع .

فلم يرتض منه ولاءَه للسلطانِ العثمانيِّ فى تركيا ، ولم يقتنعْ باعتمادِه على فرنسا فى العملِ على تخليصِ مصرَ من الإنجليز ، وكان من رأيِه فى كلِّ حالٍ أن حريةَ مصرَ لا تُوهَب ، وإنما تنتزعُها سواعدُ أبنائِها الذين تربَّوْا تَربيةً حقة ، ونُشِّئُوا تَنْشِئَةً وطنيةً صحيحة .

وقضى سعدٌ فى وزارةِ المعارفِ أربعَ سنين ، ضاق فيها الإنجليزُ بنشاطِه ، وبالمشاعِل التى ألهبها وَسَط سُحِب الظلام التى أشاعوها فى البلاد ، فترك هذه الوزارةَ ، وصارَ وزيرًا للحقانية (العدل) سنة ١٩٠٨ . وقبل أن يترك وزارةَ « المعارِف » مات ابنُ مصرَ وزعيمُها مصطفى كامل ، فترك الطلابُ معاهدَهم ، والتلاميذُ مدارسَهم ، وسارعوا فزعين محزونين ؛ ليشاركوا فى وَدَاع هذا الزعيم إلى مثواه[1] الأخير ، وعندئذ أُغلِقْت أبواب المدارس ، وثار المستشارُ الإنجليزيُّ فى الوزارة ، يطالبُ بمعاقبتِهم ، فأبى سعد وقال :

« إنها غاشيةُ[2] حزنٍ ألمت بالأمةِ بأسرها ، فلا يُعقَلُ أن ينأى[3] عنها شبانٌ مصريون ، لمجرد كونهم طلابًا فى المدارس . وفى الحقانية قضى سعد سنتين ، حاول فيهما أن يسموَ بها ، ويكفَّ عنها العبثَ والأهواءَ والمطامع ، وصارع فى سبيل ذلك صراعًا شديدًا ، ثم تركها إلى دنيا الحريةِ والحياة الشعبيةِ الرحيبةِ الآفاق .

وخرج يطالبُ بالدستورِ مع محمد فريد ، فتنضمُّ إليهما أصواتُ الوطنيين ، وتجمعُ كلها فى صيحةٍ مدوية ، تحملُ الإنجليزَ على إنشاءِ جمعيةٍ تشريعيةٍ استشاريةٍ ، تنظر فى القوانينِ وفى أعمالِ الحكومة .

ورشح سعدٌ نفسَه لهذه الجمعيةِ فى دائرتينِ من الدوائرِ الانتخابية ، فنجحَ

---

(١) مثواه : مقره .　　(٢) غاشية : كارثة شملت البلاد .

(٣) ينأى : يبعد .

فيهما معا بالرغمِ من مقاومةِ القصرِ والإنجليزِ والحكومة ، وبالرغم مما بذلوا فى سبيلِ إسقاطِه من مالٍ ووعدٍ ووعيد ..

وخاب ظنُّهم خيبةً أليمة لقد ظنوا أنهم أبعدوه على الأضواء ، ولكنهم إرتعدوا حين وجدوه فى غمادِها[1] . وحين رأوه يعيش قلوبِ الشعب . وزادت رِعدتهُم حين انتُخِبَ وكيلًا لهذه الجمعية ؟ ففى جلساتِهَا علا صوتُه ، حتى أفزعَ الحكومة ، وكشفَ فضائحَها وجرائمَها بأدلتِه المقنعة ، وبراهينِهِ المفحمة ، وعلى يده صارت المعارضة قوةً مخيفةً : للوزارةِ والقصرِ والإنجليز جميعًا حدود .

ولكن عُمر هذه الجمعيةِ لم يطُل ؛ فقد قامت الحربُ العالميةُ الأولى فى يوليه سنة ١٩١٤ ، فوقفت إنجلترا نشاطها ، وفرضت حمايتها على مصرِ . وأبعدت الخديو عباس حلمى الثانى عن العرش ، وأجلست السلطانَ حسين كامل عليه ، وسخَّرت البلادَ لأهدافِها الحربية ، فوضعت يدَها على مواردِها ، وجندت مَن أرادت من أبنائِها ، واستولت على ما شاءت من أموالِها ، وساقت إلى ميادين القتالِ أقواتَ الفلاحينِ وماشيتَهم ودوابَّهم ، فظن من أحسنوا الظن بها أنها ستفِى[2] لمصر بعد الحرب بما وعدتها به من الجلاء والاستقلال ، ولكنها كانت تفكر ، بعد أن انتصرت وانتصر حلفاؤها ، أن تجعل منها مستعمرةً بريطانية .

---

(١) غمادها : وسطها .   (٢) ستفى بوعدها : ستنفذه .

(٦)

سعد وثورة سنة ١٩١٩

انتهت الحربُ العالميةُ الأولى ، وأُعلِنت الهدنةُ بين الحلفاءِ وأعدائِهم فى الحادىَ عشرَ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وسعدٌ على أحرَّ من الجمر ، يَترقبُ ذلك اليوم ؛ ليُطالبَ إنجلترا بمنحِ مصرَ حقَّها فى تقرِير مصيرها ، بعد أن أعانتها على النصر ، وبعد أن قطع الحلفاءُ على أنفسهم عهدا بذلك ، وأكدوه مرارًا ، ولكنه أحسَّ أن إنجلترا نَسِيت الشرفَ ، والمبادئَ ، والوعُودَ الخلابةَ[١] ، وعادت إلى ما درجت عليه من الغدر والرياءِ والكذب .

وكانت مصرُ كسعدٍ فى انتظارِ ذلك اليومِ ، وقد راحت تدورُ ببصرِها فى وجوهِ أبنائها ، تبحثُ عن خيرِ زعيم ، يستطيعُ أن ينتزعَ لها حقوقَها من فمِ الأسدِ الإنجليزىِّ المزهوِّ بقوته وانتصارِه .. ولم تجد مصر بين أبنائها جميعًا من يصلُحُ لزعامتِها كما يصلُح لها سعد .. إنه الزعيمُ الفلاحُ الذى تركزت فيه آمالُ الفلاحين فى أنحاءِ البلاد ، والأبُ الحانى الذى توحّدت فى أبوته طوائفُ الأمة ، والتفت عليها أحاسيسُ المظلومين والضعفاءِ والمسحوقين[٢] ، والمثقّف البصيرُ الذى لا يختلف اثنان على خبرتِه الواسعة بلعبة السياسةِ وأحوالِ الاجتماع ، وهو ، مع هذا ، الذكاءُ البارعُ والأدبُ الرّائعُ ، والخطابةُ المثيرةُ ، والمنطقُ المقنعُ ، والإصرارُ الذى يتحدّى ولا يتزعزعُ ، والماضى النظيفُ الذى

---

(١) الخلابة : الخداعة . (٢) المسحوقين : المطحونين من الضعف والمظالم ..

لم يلوثْه غدرٌ أوِ نفاقٌ أو انحناء .. وقد مات مصطفى كامل ، ونُفِيَ محمد فريد خارجَ مصر ، فلم يبق من كبار القوم حولَ سعدٍ من ينافسُه فى شعبيته أو فى صفاتِه الزعامية .

وكان سعدٌ يعرف ذلك من نفسه ، ويدركُ أنه ابنُ الشعبِ المسئولُ عن مستقبلِ بلاده . ولم يتأخرْ ، فما كادت تُعلنُ الهدنة فى الحادىَ عشرَ من نوفمبر ، حتى كان ، بعدَ يومٍ واحد ، وفى الثالثَ عشرَ من نوفمبر — فى طريقه إلى دارِ ممثِّل بريطانيا ، فى وفد برياستِه ، وعضويةِ كلٍّ من على باشا شعراوى وعبد العزيز بك فهمى . ودَهِش الإنجليزىُّ أبلغَ[1] الدهشة ! إن الوفد يطالبُ باستقلالِ مصرَ ، وتنظيمِ علاقتِها بإنجلترا على أساسِ الندِّ للندِّ ![2] وراوغَ[3] الرجل ، ثم زعمَ أن سعدًا لا يملكُ الحقَّ فى التحدثِ باسمِ مصرَ كلِّها ، ولكن الأمةَ صدمت هذا المعترضَ ، حين تهافتت على سعدٍ والوفدِ الذى كوَّنه ، فوكلته عنها ، ووقعت حشودُ المصريين هذا التوكيل . وكان اختيارُ سعدٍ لزعامة الوفدِ الأول ، والثانى ، والأمةِ كلِّها أقوى دليلٍ على انفرادِه بالزعامة ، وتسليمِ غيرِه له بها .. دارت مناقشةٌ فى بيتِه ، حولَ رأيٍ له ، تناولوه بالنقد ، فأَحَسَّ فى نقدِهم مساسًا به ، فقال لهم :

كيف تهينوننى وأنتم فى منزلى ؟

فقال أحدهم :

« نحن لسنا فى منزلِ سعد باشا ، وإنما نحن فى بيتِ الأمة » .

وصدق واقعُ الكلمةِ ، وسُرَّ سعدٌ بها ، وأصبح زعيمَ الشعب بأسره ، كما أصبح بيتُه بيتُ الأمةِ كلِّها .

* * *

---

(١) أبلغ : أشد .　(٢) الند : المثيل .　(٣) راوغ : داود

وبادر زعيمُ مِصر ، فطلب إلى الإنجليز القائمين بالأمرِ فيها أن يسافرَ فى وفدِه الذى اختارته الأمةُ إلى الخارج للدفاع عن قضيتها ، فأبوا عليه ذلك ، فكرر المحاولة له ولكنهم أبَوْا ، ووجدهم ينظمون محاضراتٍ ، يلقيها بعضُ الإنجليز ، ليهيئوا بها الأذهان لبقائِهم بعدَ الهدنة ، فصمم أن يُفسدَ عليهم هدفَهم .. سمع محاضرةً لواحدٍ منهم فى الجمعية السلطانيةِ ، بشارع قصرِ العينى ، دُعِىَ إليها كبارُ الإنجليز وأذنابُهم من المصريين ، فانتظر حتى انتهى الإنجليزىُّ من حديثِه ، وعلَّق عليه بقوله :

« أعلنت إنجلترا حمايتَها على مصر من تلقاءِ نفسِها ، ودون أن تطلبَها أو تقبلَها الأمةُ المصرية ، فهى حمايةٌ لا وجودَ لها قانوناً ، بل هى ضرورةٌ من ضروراتِ الحربِ ، تنتهى بنهايتها ، ولا يمكنُ أن تعيشَ بعد الحرب دقيقةً واحدة .. إن التشريعَ الذى يقترحُه المحاضرُ إنما يناسبُ دولةً همجيةً ، ليس لها الماضى الذى للشعب المصرى » .

ضجت القاعةُ بالتصفيق لسعدٍ ، فخاف المحاضرُ ، واضطرب الإنجليزُ ومدت بعضُ الأيدى بإيعازٍ منهم[1] إلى الأنوارِ فأطفأتها ، حتى لا يتمادى سعدٌ فى تعليقِه .

وخرج الناسُ من القاعةِ ، وسعدٌ وزملاؤُه والوطنيون جميعاً فى زهوٍ بمواجهةِ الاحتلال ، والإنجليزُ فى فزعٍ ، يحاولون مواجهةَ الموقفِ الذى يؤذن[2] بالتفجرِ فى سرعةٍ ، ودون ترددٍ أو تراجع ... لجأوا إلى رئيس الوزارةِ إذ ذاك رشدى باشا ، فوجدوا روحَه مع سعدٍ أو تخشى ألَّا تكونَ معه ، وتحسَّسُوا موقفَ السلطانِ فؤاد ، فعرفوا أنه لن يعرِّضَ نفسَه لغضبةِ شعبه ، وبحثوا عن أذنابهم فوجدوا قلوباً طائرةً من الرعب .

---

(١) إيعاز منهم : أمر وطلب .　　(٢) يؤذن : يعلم ويدل .



سعد يتحدث أمام عدد جم من الإنجليز وكبار المصريين

ومضت الأحداثُ ، وطلب رشدى باشا منهم السماحَ له ولغيرِه من قادةِ المصريين بالسفر إلى الخارج ؛ للدفاعِ عن قضيةِ مصر ، فقبلوا سفرَه ، وأَبَوْا سفرَ غيرِه ، فاستقالَ فى أول مارس سنة ١٩١٩ .

عندئذ تحركَ سعد فى كلِّ اتجاه .. طلبَ إلى السلطانِ فؤاد ألا يقبلَ استقالةَ رشدى باشا .. حذرَ كبارَ المصريين من قبول الوزارةِ فى ظلِّ الحماية .. هدَّد الإنجليزَ بأنَّ الموقفَ ينذِرُ بالخطرِ الشديد .. احتجَّ لدى ممثلِى الدولِ الأجنبيةِ فى مصرَ على موقفِ إنجلترا المخادعِ الغادرِ .. رأى قائدُ القواتِ البريطانيةِ فى البلادِ منه ذلك ، فطارَ صوابُه ، وفكر أن يُطفِئَ النارَ قبلَ أن تشتعلَ ، فأرسلَ فى طلب سعدٍ ووفدِه إلى دار القيادةِ ، وحذرهم :

« أن يوقفوا أىَّ عملٍ يعوقُ سيرَ الإدارةِ الإنجليزية ، أو ينتظروا المعاملةَ بما تقتضيه الأحكامُ العرفية » .

وكان هذا القائدُ كالجبارِ الخزفىِّ ، يظنُّ فى نفسِه أنه مهيبٌ رهيب(١) ، وهو يخشى أيةَ صدمةٍ تحطِّمُه .. كان إنذارُه لسعدٍ فى اليوم السادس من مارس ، وكان ردُّ سعدٍ كلمحِ البصرِ فى اليومِ نفسِه ؛ فقد أبرقَ(٢) إلى رئيسِ الوزارةِ البريطانية يندِّدُ(٣) بالقائد الإنجليزىِّ ، ويعلنُها فى غير خوفٍ من المحتلين ، ودون أدنى يأسٍ أو شكٍّ فى عظمةِ الشعبِ العظيم ، ووقوفِه من وراء أبنائِه المناضلين .. يقولُ فى كلمته لرئيسِ الوزارة :

« إن السلطةَ العسكرية تجهلُ أننا نطالبُ بالاستقلالِ التامِّ ، وأننا أخذنا على عاتقِنا واجباً وطنياً ، لا نتأخرُ عن أدائِه بالطرقِ المشروعةِ ، مهما كلفنا ذلك » .

وكانت مصرُ كلها تتمثَّلُ فى سعدٍ .. تتحدثُ بلسانِه ، وتهددُ بكلماتِه ، ولكن القائدَ استهان به ، فأمر باعتقالِه واعتقالِ ثلاثةٍ من أصحابه ، هم :

---

(١) رهيب : مخيف .　(٢) أبرق : أرسل برقية .　(٣) يندد : يفضح معايبه .



الثورة المصرية فى أروع مظهر لها
وأبناؤها يحملون الرايات ، ويتدافعون فوجا وراء فوج

محمد محمود باشا ، وإسماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا ، وسِيقَ ثلاثتُهم إلى ثُكنةِ قصرِ النيل ، وفيه باتوا ليلتَهم ، ثم نُقِلوا فى اليومِ التالى إلى بور سعيد ، وحمَلَتْهم إحدى البواخرِ إلى معتَقَلِهم فى جزيرة مالطة بالبحر المتوسط .

وشاعَ الخبرُ ، وكان الردُّ كصدماتِ الكهربا الخاطفةِ العاجلة . تحركت مصرُ يوم نُفِىَ سعدُ فى اليومِ التاسع ، غادرَ الطلابُ معاهدَهم . أُغلِقت أبوابُ المحال و ترك مَن فيها أعمالَهم . تجمعت طوائفُ الشعبِ فى مظاهراتٍ مدويةٍ صاخبةٍ(١) ، تطوفُ بشوارعِ القاهرةِ يوماً بعد يوم ... فيتصدَّى لها جنودُ الإنجليز ، ويقذفونها بنيرانِ بنادقهم .. ولكنها تزدادُ وتغلى ، وينضمُّ إليها سائرُ الطوائف .. المحامون ،وعمال السكة الحديدية ،وعمال الترام والسيارات ، والنساء ،والشعب خارج القاهرة فى مختلَف المدن .

وتطورتِ الأحداثُ ، وتعددت المظاهراتُ ، وسقط فيها أعدادٌ من الرجال والنساء ، وقُطِّعت السككُ الحديدية ، وأسلاك البرق ، وصارت القاهرة بمعزلٍ عن بلادِ القطر .

عند ذاك تراجعت إنجلترا شيئاً ما ، فسحبت ممثلَها فى مصر ، وعيَّنت غيرَه بدلًا منه ، وخشيت إراقة الدماء ، فتركت مظاهرة القاهرة الكبرى فى السابعَ عشرَ من مارس ، تسير حيث شاءت ، وفيها أمواجٌ من البشر،فيها الرجالُ والنساء ، المسلمون والمسيحيون ، علماءُ الدين والقضاةُ والمعلمون والمحامون والتجار ، العمالُ والصناعُ والطلَّابُ وغيرُهم ، وفى عبارةٍ موجزةٍ .. القاهرةُ برجالِها ونسائِها وشبابِها وطوائفِها .

ودلت هذه الثورةُ دِلالةً صريحةً قوية على أن سعداً أولُ مصرىٍّ اتفقت عليه كلمةُ مصر ، وأولُ ابنٍ من أبنائِها ظفِرَ بمثلِ هذه الشعبيةِ ، وأول زعيمٍ أفزعَ إنجلترا بقوةِ تأييدِ وطنِه له ، فبدأت تحسُبُ له ألف حساب .

---

(١) صاخبة : ذات ضجة وجلبة .

(٧)

سعد بعد الثورة

لم تجنِ إنجلترا من نيرانِها التى صبَّتها على المصريين غيرَ كراهيتِهم لها ، وحماستِهم للوقوفِ فى وجهها .. فحاولت أن تجربَ سياسةَ اللينِ والخداع .

قررت إطلاقَ سراحِ سعدٍ وزملائِه ، وسمحت لمن شاءَ بالسفرِ إلى الخارج ، ورجع سعدٌ من منفاه ، فلقِيَه أبناءُ مصرَ لِقاءَ الأبطالِ المنتصرين .. ولم يهدأْ سعدٌ ، أو يجنحْ إلى الراحةِ بها ، بل سافر فى وفدِه إلى فرنسا ؛ ليدافعَ عن حقوقِ مصرَ أمامَ قادةِ الحلفاء فى مؤتمر الصلح بباريس ، ولكن صدمته كانت عنيفة ؛ فقد وجد إنجلترا قد خدعت الرئيسَ الأمريكىَّ وِلْسُن ، فأقرَّ حمايتَها على مصر ، ونَسِىَ تصريحاتِه ومبادئَه ووعودَه للدول التى وقعت ضحيَّةَ الظلم والطغيان .

لم ييئَسْ سعدٌ ، بل راح يشهِّرُ[1] بغفلةِ الرئيس الأمريكىِّ ، وخبثِ رئيس الوزارةِ الإنجليزى ، وسذاجةِ[2] محمد سعيد باشا رئيس الحكومةِ المصريةِ التى عطلت الوزاراتِ ، ورفعت الأعلامَ ، وأطلقت المدافعَ احتفالًا بالرابعَ عشرَ من يولية سنة ١٩١٩ ، وهو اليومُ الذى وقَّع فيه قادةُ الحلفاء معاهدةَ الصلح ، ومن بين ما أقرَّته هذه المعاهدةُ أن توضعَ مصرُ تحت حمايةِ الإنجليز ، مع عظمتها ، وعراقةِ تاريخِها ، ومساعدتها لهم فى الحرب .

رفع سعدٌ رايةَ الكفاح ، وعاد الخوفُ يداخلُ قلبَ إنجلترا وقلوبَ أبنائِها ، ابتداءً من رئيس وزرائها وساستها فى إنجلترا ، حتى أدنى جندىٍّ لها فى مصر ..

---

(١) يشهر به : ينشر معايبه .　　(٢) سذاجته : سطحيته وعدم عمقه .

وعادت أشباح مارس ، بثورتِه وفظائِعِه وقتلاه ، تمرُّ أمامَ عيونهم ، ومن ورائها سعدٌ ورجالُه .. ولكن رئيس وزرائِهم حاول — مع ذلك — أن يلعب لُعْبَةً أخرى ، ولو لكسبِ الوقت ، فقرر تكوينَ لجنة لمفاوضةِ سعد و تسمى لجنة « مِلنر » ، وعرف سعدٌ غايتَها ، فرأى مقاطعتَها ، ثم عاد فآثَرَ أن يلتقىَ بها ؛ ليقنعَها بحق مصر ، وعدالةِ مطالبها .. وتم هذا اللقاءُ ، وخرج منه « ملنر » على دهائِه بانطباعٍ قوى ، عن عظمةِ سعد وقدراتِه الزعاميةِ التى تستحق التفكيرَ باهتمام .

ونصح إنجلترا فى تقريرِهِ لها أن تعدِلَ عن التشدد(١) مع مصر ، فتتنازلَ عما فرضت عليها من الحماية ، وتعترفَ باستقلالها ، وبالمحافظة — فى الوقت نفسه — على مصالحها فيها ، وعلاقتِها بها .

وفتحت توصياتُ « ملنر » نافذةَ أملٍ لمصر ، تستطيع بها أن تنالَ حقوقَها بطريقٍ سلمىٍّ ... وانتهز سعدٌ الفرصة ، فاتفق هو وعدْلى باشا رئيسُ الوزارة المصرية أن يتعاونا فى مفاوضةِ الإنجليز : عدلى بحكم منصبه الرسمىِّ ، وسعدٌ بحكمِ زعامته لمصر .. ولكن سعداً لم يطمئنَّ كثيراً إلى عدلى ، وخَشِىَ أن يفرِّطَ فى حقوقِ وطنِه(٢) ، وكان من قوله فيه :

« إن جورجَ الخامسَ يفاوض جورجَ الخامس » .

وفاوضهم عدلى وحده ، ولكنه أخفق ؛ لأنه أحس أن مصرَ كلَّها تقفُ مع سعدٍ ولا تقفُ معه ، وأن الإنجليزَ إنما يريدون منه التنازلَ لهم عما يستطيع التنازلَ عنه ؛ ولهذا قطع المفاوضاتِ معهم ، وعاد إلى وطنِه ، ليجدَه شعْلةً من السخطِ عليه ، والازدراءِ له ، فاستقال فى ديسمبر سنة ١٩٢١ .. ولم يصْمُت سعدٌ أو يتركِ النارَ لتهدأ ، بل بادرَ باستئنافِ الجهادِ(٣) ضد أعداءِ الشعبِ جميعاً ؛

---

(١) تعدل عن التشدد : تتركه . (٢) يفرط فى حقوق وطنه : يضيعها .

(٣) استئناف الجهاد : معاودته مرة ثانية .

لأن السلطانَ أحمد فؤاد تخلّي عن الشعبِ خوفاً على عرشِه ، ولأن الإنجليزَ أحسُّوا أن زمامَ مصرَ يكاد يُفلتُ من أيديهم ، فازدادوا تشبثاً به ، ولأنهم لا يُعطون أبداً إلا مع آخِرِ لحظةٍ يعجِزون فيها عن المقاومة .

وفى سرعةٍ خاطفةٍ أخذت أمواجُ السخطِ تعلو وتتلاطمُ[1] أمام عيونِ الأعداء .. فكراسيُّ الوزارة تخلو من الوزراءِ ؛ لأن أحداً لم يتقدمْ لها ، والسلطانُ فؤاد كدوارةِ الريح ، يتجه مرةً نحو الإنجليز ، ويتجه مرةً أخرى نحو سعد وأصحابه من زعماء الحركة الوطنية ، والمعركةُ مع الدخلاءِ[2] بدأت تتخذ طريقَ المقاومةِ السلمية ، فتدعو إلى مقاطعتِهم ، والكفِّ عن الشراءِ منهم ، أو البيعِ لهم ، أو التعاونِ معهم .

عندئذ عاد الإنجليزُ إلى لعبتِهم القذرة ، بنفى سعدٍ وصحبِه .. ونظرت الدنيا ، فشهدت الزعيمَ الذى هدَّته الشيخوخةُ والأمراض ومَشاقُّ الجهاد ، يمشى رافعَ الرأسِ بين حراسِه ؛ لتحمِلَه الباخرةُ فى أواخرِ ديسمبر سنة ١٩٢١ إلى جزيرة « سيشل » فى المحيط الهندى ، ثم ليتركَها لمرضه ، فتحملَه إلى جبل طارق فى أغسطس سنة ١٩٢٢ ، وظنت إنجلترا أن بُعدَه عن عيونِ المصريين ربما انتهى بهم إلى الغفلةِ عنه ونسيانِ دعوته .

زادَ نفيُ سعدٍ جوَّ مصرَ اضطراباً ، وملأه بالعواصف والأعاصير ، فبادرت إنجلترا ، فأصدرت تصريحَ الثامنِ والعشرين من فبراير سنة ١٩٢٢ ... ومن موادِّ هذا التصريحِ ما ينصُّ على إنهاءِ الحماية ، والاعترافِ بمصر دولةً مستقلةً ذاتَ سيادة ، وإلغاءِ الأحكامِ العرفية .

وعلى أساسِ هذا التصريـح ، وبفضلِ كفـاح سعدٍ وأصحابِـه ، بدأت مصر مرحلةً جديدةً فى حياتها .. خرجت فيها من دائرةِ الدولِ التابعةِ

(١) تتلاطم : يضرب بعضها بعضا . (٢) الدخلاء : الأعداء الذين دخلوا مصر بغير حق .

للتاج البريطانى ، وأصبحت دولةً مستقلةً لها سيادتُها ، وصار الجالسُ على عرشِها مَلِكاً بعد أن كان موظفاً بريطانيا .. واقتربت خُطُواتٍ من أهدافِها فى الحريةِ التى تنشُدُها[1] ، والحياةِ الكريمة التى ترجوها .. وحقَّ لها أن تُحكَمَ فى ظلِّ دستورٍ ، يحدِّدُ حقوقَ الشعبِ وواجباتِه ، وموقفَ الملك منه .

ونجحت إنجلترا بذلك فى اجتذابِ بعضِ المصريين لرياسةِ الوزارة ، وظنت أنها أعطت المناضلين بزعامةِ سعدٍ ما أرادوا وفوقَ ما أرادوا .

ولكن المقاومةَ الوطنيةَ لم تنخدعْ ولم تهدأ .. فإن جيش إنجلترا ما يزالُ بمصر ، وما تزالُ له السيطرةُ عليها ، والوزارات التى جاءت بها لحكم مصرَ تعطيها ما تشاءُ ، من مصادرةِ الصحف ، وكبتِ الحرياتِ[2] ، وتقديم بعض التنازلات ، وتكوينِ جبهاتٍ أو أحزابٍ تحارب سعداً وأصحابَه .. والمِلكُ بعد ذلك كلِّه يحاربُ الدستورَ ، ويخشى خطرَه على سُلْطاتِه .

وظنت إنجلترا أنها قد نجحت فى تهدئةِ الجوِّ وتخدير المصريين ، ولكن المعركةَ الوطنيةَ عادت أدراجَها[3] ، تستمدُّ قوتها من إيمانِ سعدٍ ، وصلابتِه ، ووطنيته ، وكانت هذه المرةَ أرسخَ قوةً ، وأعظمَ حرارةً وعطاء ؛ تقديراً لهذا الزعيم الذى لا يكف عن الجهاد ، مع نفيِه واعتقالِه وشيخوختِه واعتلالِ صحته .. وصحَتْ إنجلترا على أسلوبٍ جديدٍ ، لجأت إليه المقاومةُ الوطنية ؛ فقد كونت جمعياتٍ سريةً ؛ لإرهاب الإنجليزِ ، وطلاب الوزارةِ ، وأعداء الوطن ، وجدَّتْ هذه الجمعياتُ فى عملِها ؛ حتى أشاعت الذعرَ فى قلوبِ المعتدين من الإنجليزِ ، والخونةِ من أذنابِهم .

خافت إنجلترا خطَرَ هذا السلاحِ الجديد ، وخافه أذنابُها ، وصحا المَلكُ

---

(١) تنشدها : تطلبها . (٢) كبت الحريات : الضغط عليها وإسكاتها .
(٣) عادت أدراجها : رجعت كما كانت .



سعد بين حراسه ينزل إلى الباخرة لتنفيه بعيدا عن وطنه ،
وهو مع ذلك رافع الرأس ، ينظر فى زهو إلى من حوله

من غفوتِه[١] .. واندفعوا جميعاً يترضَّوْن المصريين ، فصدر الدستورُ ، وأُلغِيت الأحكامُ العرفية ، وأُطلِق سراحُ سعد .

غادر سعدٌ معتقلَه فى جبلِ طارق ، وطلابُ مصرَ فى فرنسا وإسبانيا يسارعون إلى لقائِه فى عُرْضِ البحر[٢] مرحبين مهللين .. وتقدم منه بعضُهم ، يذكرون مآثرَه ، ويتبادلون الخُطَبَ واحداً بعدَ واحد .. فتحدَّث فيهم راجياً أن ينسَوْه فى تلكَ اللحظاتِ ، ليفكروا فى الذين لا يزالون يرسُفُون[٣] فى قيودِ السجن والاعتقالِ .. ويقول فيهم :

« إن مصدرَ قوتِى هو أنى لستُ معبِّراً إلا عن شعورِ الأمة وآرائِها ، معرباً عن تصميمها على أن تعيشَ حرةً مستقلة » .

وعاد الزعيمُ إلى مصرَ ، فوصل إليها فى السابعَ عشرَ من سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، وتلقته البلادُ بحفاوةٍ شعبيةٍ لم يظفَرْ بها زعيمٌ قبلَه ، شاركت فيها كلُّ طوائفِ المصريين ، كما شاركت فيها الأجنبياتُ والأجانب ، وراحت السيداتُ والأطفالُ منهم ينثرون عليه وعلى موكبِه الورودَ والأزهار .

وكان هذا اللقاءُ أعظمَ رمزٍ على أن سعداً هو الزعيمُ الشعبىُّ الأول ، الذى لا ينافسُه أو لا يستطيعُ أن ينافسَه رجلٌ فى مصر .

وبدأ تطبيقُ الحكمِ الدستورىِّ ، فأُجرِيت الانتخاباتُ ، لاختيار نوابِ الأمَّة وممثليها .. وظهرت النتائجُ ، ففازَ سعدٌ وأنصارُه بأكثريةٍ ساحقة ، وعندئذ أَلَّف الوزارة ، وافتتح « البرلمان » مع الملك فؤاد فى منتصف مارس سنة ١٩٢٤ ، ونعِمَت مصرُ لأولِ مرة برابطةٍ من الحبِّ الصادقِ بين الحاكِمِ والمحكومِ ، لم تُحسَّ بمثلِها من قبل .

---

(١) غفوته : نومته وغفلته .　　(٢) عرض البحر : ناحيته .

(٣) يرسفون : يمشون .

ومضت وزارة الشعب فى خدمة الشعبِ وتحقيق آمالِه بصورةٍ أرضتْها وأرضتْه .. وكان من قول سعد فيمن اجتمعوا لتكريمِه والاحتفالِ به :

« زملائى ! إن الفرحَ بانتصارِنا ، وإنْ كان الانتصارُ عظيما ، لا ينبغى أن يُلهيَنا عن عظيمِ المسئوليةِ التى ألقاها هذا الفوزُ الباهرُ على كواهِلِنا ، وحصرَها فينا ، فيجب علينا أن نتمثَّلَها أمامَ أعيُنِنا ، ونشتغلَ بإعدادِ الوسائِلِ لحسن تحمُّلِها ، وأن نوطِّد[1] العزم على مجانبة الراحةِ وتحملِ المتاعب ، حتى نَخرجَ من عهدتِها كراماً شرفاء ، كما تحملناها كراماً شرفاء » .

وحقاً ! كانت وزارتُه وزارةَ الشرفِ والكرامة ، ولكن القصرَ بدأ يشعرُ يوماً بعد يومٍ أن الحكمَ أخذَ ينفلتُ من يدِه ، ليعودَ إلى الشعب ، وبدأ الإنجليزُ يدركون أن مصرَ التى حرصوا على ضمِّها للتّاج البريطانىِّ . قد خيَّبت رجاءَهم فيها ، وعادت إلى أبنائها المخلصين .. وأيقن الخونةُ وعشاقُ المصالحِ الذاتيةِ أن وزارةَ الشعبِ لن تدعَهم أو تغفُلَ عنهم .

وشيئاً فشيئاً تجمعت هذه القوى الشريرةُ على سعد ، واستطاعَ الإنجليزُ تدبيرَ بعضِ المكايد له ولمصر ؛ لكى يحصُلوا منه على بعضِ المكاسب غير المشروعةِ ، ولكنه أبَى ، واستقال ، وجاءَ أحمد زيور ، فسلمَ لهم بما أرادوا منه .. وتوالت الموجاتُ فى صراعٍ عنيفٍ بين الشعبِ وأعدائِه ؛ الشعب ينتخبُ سعداً ويعيدُه إلى الحكم فى ظل الدستور و « البرلمان » ، والملك يسرع بحل « البرلمان » ، وتعطيل الدستور ، وتعيين وزارات موالية له ، وسعدٌ ـــ مع ذلك كلِّه ـــ يقاومُ ويصادمُ ، ولا يهن أو يفتُر .

وظـل كذلك حتـى وافـاه أجلُـه فى الثـالث والعشريـن من أغسطس سنة ١٩٢٧

---

(١) نوطد : نمهد ونثبت .

وخرجت مصرُ كلُّها لتشيعَ ابنَها ورائدَ كفاحِها إلى مثواه الأخير ، وكان من رأى قرينتِه السيدةِ صفية زغلول أنه أجلُّ من أن تزيِّنه الأوسمةُ ، فطلبت أن يكون غطاءُ نعشِه علمَ مصر ، وأن يكونَ وسامُه جلالَ الموت ، ولكن الحكومةَ أمرت بنقل الجثمانِ فوق عربةِ مِدفع ، وإطلاقِ سبعَ عشرةَ طلقةً فى بدء مسيرها إلى مقره المؤقت فى صحراءِ الإمام ، وحتى يتمَّ بناءُ ضريحه الذى نُقِل إليه ، وعُرف باسم « ضريح سعد » .

ختام فى كلمات

لا تتسعُ صفحاتُ كتيِّبٍ كهذا الكتيِّبِ لتاريخِ زعيمٍ عظيمٍ كسعد ، ولكنها إذا لم تكن قصةَ حياةٍ مكتملة ، أو ملامحَ سيرةٍ وافية ، فلا أقلَّ من أن تكونَ أضواءً على الأحداثِ البارزةِ فى تاريخ هذا الرجلِ العظيم ، ودروساً للأجيالِ التى تتعلق بالعظماءِ ، وتتخذُ منهم مُثُلًا تحاولُ أن تسلكَ طريقَها ، وتسيرَ على نهجِها . ولعلَّ من أبرزِ الدروسِ فى حياةِ هذا الرجلِ العظيمِ :

.. أنه كانَ أبرزَ زعيمٍ ، اكتملت فيه صفاتُ الزعامة فى عصره ، كما لم تكتملْ فى أحدٍ من معاصريه .. لم يكنْ من الأتراكِ العثمانيين ، أو الأكرادِ ، أو الشراكسةِ ، أو أمثالهم ممن يحملون الروحَ الأجنبية ، والدماءَ الأجنبيّةَ ، ولم يكن من أذنابِ القصرِ الذين يتملقونه فى حقٍّ وفى غير حقٍّ ، كما أنه لم يكن من عُبَّادِ الحضارة الغربية الزائفة ، الذين عاشوا فى مصرَ بأجسادِهم ، وعاشوا خارجَها بقلوبِهم وعقولِهم .. وإنما كان سعدٌ فلّاحاً فى نشأته وبيئتِه ومشاعرِه ، يعيشُ فى قلوبِ أبناءِ شعبه ، ويعرف كلَّ آلامِه وآمالِه ، ويحسنُ التعبيرَ عنها ، ويقفُ من ورائِها فى وعيٍ وذكاءٍ وبصيرةٍ[1] نفاذةٍ ؛ ليدافعَ عنها ، ويُضحِّيَ فى سبيلِها ..بكلِّ ما يملكُ من وقتٍ ، وفكرٍ ، وجهدٍ ، ومالٍ .. بل ليضحىَ فى سبيلِها بروحِه ، إذا كان لا بد من التضحيةِ بها .. حقاً ! لم يفقِدْ سعدٌ صفةً من هذه الصفات ، بل اكتملت كلُّها فيه ، وزاد عليها الجرأةَ ، والإباءَ[2] ، وقوةَ الشخصية ، والقدرةَ الفذةَ[3] على الحوارِ ، والإقناعِ المسكتِ المفحم[4] .

---

(١) بصيرة : حس باطنى بالأمور ، ووعى لها . (٢) الإباء : رفض الظلم والمهانة .
(٣) الفذة : الفريدة . (٤) المفحم : المسكت .

.. وكان سعدٌ مخلوقاً للسبقِ الذى يؤهلُه لهذه الزعامة ، فلم يتخلَّ عنه طَوالَ حياته ، وفى كلِّ مراحلِ عمره ... حَرَصَ على أن يكونَ الأولَ حين جلس بين أمثالِه من الأطفال فى المكتب ، وحين أصبح طالباً فى الأزهر ، وحين تحولَ موظفاً فى « الوقائع » .. كما حرصَ على أن يكونَ الفردَ الفذ حين أصبح محاميا ، وحين تحول قاضياً ، وحين صار وكيلًا للجمعيةِ التشريعية ، وأخيراً حينَ كان زعيما يفوقُ سائرَ الزعماء .

.. وكانت له عقليةٌ منطقيةٌ فريدة ، تقدِّرُ عظمةَ شعبِه وطاقتَه الجبارة ، كما تقدرُ الواقعَ ، وتحسُبُ له حسابَه ، فلا تهيمُ فى الخيالِ ، أو ترمى نفسَها فى شعابه[1] ، ولهذا كان يسدِّدُ ضرباتِه[2] ، ولا يرسلُها لتطيشَ فى الهواء ، ولهذا أيضاً واجهَ القصرَ والإنجليزَ والخونةَ ، وانتصر عليهم جميعاً ، وكان عمادُه فى ذلك قوةَ الشعبِ المصرىِّ الذى أحبَّه ، وقدَّره ، ووقفَ من ورائِه بكلِّ ما يملك ، كما كان من وراءِ انتصارِه صفاتُه الزعاميةُ التى منحته قوةً جبارة ، لم تتهيأْ لغيره فى عصرِه .

.. ولم يظفَرْ زعيمٌ مصرىٌّ فى العصرِ الحديثِ بما ظفِرَ به سعدٌ ، من الإجماعِ أو ما يشبه الإجماعَ ، على حبِّه ، والإيمانِ به ، والالتفافِ حول آرائِه ومبادئِه ، وحسبُه أن كان موضع رضا المسلمِ والمسيحىِّ ، والمصرىِّ والأجنبى ، والعالِمِ والجاهل ، والمتعلِّمِ والأُمِّى ، والرجلِ والمرأة ، والشيخِ والشابِّ والطفلِ .. حتى كان المصريون — لثقتهم به — يقولون : نريدُ ما يأتى به سعدٌ ! نريدُ الموتَ على يدِه ، ولا نريدُ الحياةَ المشبوهةَ على يدِ غيرِه !

.. وكان سعدٌ وطنيًّا ، ضحَّى بكل ما يملكُ فى سبيلِ وطنه .. شارك فى الثورة العرابية وهو فتًى ناشئ ، وضحى بوظيفتِه فى صدرِ حياتِه فأُبعِد عنها ،

---

(١) شعابه : طرقه .　　(٢) يسدد ضرباته : يوجهها نحو أهدافها بدقة .

كما ضحَّى بحريتِه فسُجن ، وبفكرِه ووقته وجهده وماله وصحَّتِه ، فلم يكنْ يدخرُ منها شيئاً يعتدُّ به لنفسِه وأسرتِه .. وحسبُه أنه كان يساقُ من معتقَلٍ إلى معتقل ، وصحته تتهدم ، ونجم حياتِه يؤذنُ بالغروب .

.. ولن ينسى التاريخُ له وفاءَه لغيرِه من الزعماءِ الذين عاصرهم ، وإن خالفَهم فى بعضِ الآراءِ ، ولن ينسى له أنه كان ينظرُ إلى حركاتِ الكفاحِ فى العصرِ الحديث ، على أنها حلقاتٌ متصلةٌ ، يؤدِّى بعضُها إلى بعض ؛ ويرتبطُ بعضُها ببعض .. ابتداءً من حركةِ المقاومةِ المصريةِ للحملةِ الفرنسية .. وما تلاها من النضالِ الوطنىِّ فى رشيد ، وحتى ثورة أحمد عرابى ، وكفاح مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ثم الثورةِ الشعبيةِ الكبرى على يده سنة ١٩١٩

وفى ختام هذا الكتيِّبِ أسُوق كلمةً له ، وكلمةً لسكرتيرِه الخاص ، وأخرى لصحيفةٍ أجنبيةٍ عنه ..

قال يصوِّر إيمانَه بقوة الحقِّ وقوة الأُمَّة :

« الحقُّ فوق القوة ، والأُمَّة فوقَ الحكومة » .

وقال عنه سكرتيرُه الخاص :

كان يُملى علىَّ ساعاتٍ متوالية ، يلتفتُ فى أثنائها ، فيقول : « لا تؤاخذنى ! أنا جبارٌ » ، ثم يأذن لى فى الانصراف .

وقالت عنه جريدة « التيمس » ، وهى إحدى الصحف الإنجليزية :

« هذا الزعيمُ الفلاح ، الذى تحدَّى جميعَ القوى ، وظل يواصلُ سعيَه وجهاده ؛ حتى فاز بحَملِ الدولةِ ، التى استقرت فى مصرَ أربعين عاماً ، على أن تعترفَ لمصرَ بالاستقلال الذى فقدته منذ ألفين وخمسمائة عام » .

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

١ ــ حافظ إبراهيم
٢ ــ محمود سامى البارودى
٣ ــ عباس محمود العقاد
٤ ــ أحمد عرابى
٥ ــ طه حسين
٦ ــ مصطفى كامل
٧ ــ سعد زغلول
٨ ــ على مبارك
٩ ــ محمد فريد
١٠ ــ جمال الدين الأفغانى
١١ ــ محمد كريم
١٢ ــ عمر مكرم
١٣ ــ عبد الله النديم
١٤ ــ الإمام محمد عبده

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ١٠٠ قرش

